تفسير سورة آل عمران

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ
فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ
وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ
عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ
ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى
يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

(آل عمران: ١٥٩، ١٦٠)



الإمام/ محمد عبده

الفاء للتعقيب لأن الكلام في وقعةٍ خالف النبي فيها بعض أصحابه، فكان لذلك من الفشل وظهور المشركين ما كان حتى أصيب النبي ﷺ مع من أصيب، فكان من لينه في معاملتهم ومخاطبتهم ومن رحمته بهم أن صبر وتجلد فلم يتشدد في عتبٍ ولا توبيخ؛ اهتداءً بكتاب الله - تعالى -، فقد أنزل الله عليه آياتٍ كثيرةً في الوقعة بين فيها ما كان من ضعفٍ في المسلمين وعصيانٍ وتقصيرٍ حتى ما كان متعلقًا بالظنون الفكرية والهموم النفسية، ولكن مع العتب اللطيف المقرون بذكر العفو والوعد بالنصر وإعلاء الكلمة وفوائد المصائب، وقد كان خلقه ﷺ القرآن[١] كما ورد في الصحيح من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأن الفظاظة وهي الشراسة والخشونة في المعاشرة، وهي القسوة، من الأخلاق المنفرة للناس، لا يصبرون على معاشرة صاحبها وإن كثرت فضائله، ورجيت فواضله، بل يتفرقون ويذهبون من حوله، ويتركونه وشأنه، لا يبالون ما يفوتهم من منافع الإقبال عليه، والتحلق حواليه، وإذًا لفاتتهم هدايتك، ولم يبلغ قلوبهم دعوتك.

(١) مسند أحمد، (٢٤٦٠١).

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ فلا تؤاخذهم على ما فرطوا واسأل الله – تعالى – أن يغفر لهم ولا يؤاخذهم أيضًا، فبذلك تكون محافظًا على تلك الرحمة التي خصك الله بها، ومداومًا لتلك السيرة الحسنة، التي هداك الله إليها، ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾: ليس من السهل أن يشاور الإنسان ولا أن يشير، وإذا كان المستشارون كثارًا كثر النزاع وتشعب الرأي، ولهذه الصعوبة والوعورة أمر الله – تعالى – نبيه أن يقرر سنة المشاورة في هذه الأمة بالعمل، فكان ﷺ يستشير أصحابه بغاية اللطف، ويصغي إلى كل قولٍ، ويرجع عن رأيه إلى رأيهم.

﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾: إن العزم على الفعل وإن كان يكون بعد الفكر وإحكام الرأي والمشاورة وأخذ الأهبة، فذلك كله لا يكفي للنجاح إلا بمعونة الله وتوفيقه: لأن الموانع الخارجية له والعوائق دونه لا يحيط بها إلا الله – تعالى –، فلا بد للمؤمن من الاتكال عليه والاعتماد على حوله وقوته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ على حوله وقوته مع العمل في الأسباب بسننه.

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾ الكلام استئنافٌ مسوقٌ لبيان وجه وجوب التوكل على الله – تعالى – بعد المشاورة والعزيمة المبنية على أخذ الأهبة والاستعداد بما يستطاع من حولٍ وقوةٍ، أي: إن ينصركم الله بالعمل بسننه وما يكون لكم من القوة والثبات بالاتكال على توفيقه ومعونته، فلا غالب لكم من الناس الذين نصبهم حرمانهم من التوكل عليه – تعالى – غرضًا للقنوط واليأس وإن يخذلكم بما كسبت أيديكم من الفشل وعصيان القائد فيما حتمه من عملٍ – كما جرى لكم في أحدٍ – أو بالإعجاب بالكثرة، والاعتماد على الاستعداد والقوة، وهو مخل بالتوكل – كما جرى يوم حنينٍ –

﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: من بعد خذلانه: أي: لا أحد يملك لكم حينئذٍ نصرًا، ولا أن يدفع عنكم ضرا، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ولا يتوكلوا على غيره: لأن النصر بيده وهو الموفق لأسبابه وأُهَبِه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾

(آل عمران: ١٦١– ١٦٤).

نزلت هذه الآية في شأن النبيﷺ من سياق الحكم والأحكام المتعلقة بغزوة أحد، ولكن أخرج أبوداود والترمذي وابن جرير عن ابن عباس -رضي الله عنهما - أن قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ قد نزل في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض الناس لعل رسول الله ﷺ أخذها[٢]، وقد ضعَّف هذه الرواية بعض المفسرين وإن حسنها الترمذي؛ لأن السياق كله في واقعة أُحد ورجّحوا عليها ما رُوي عن الكلبي ومقاتل من أن الرماة قالوا حين تركوا المركز الذي وضعهم النبي ﷺ فيه: نخشى أن يقول النبي ﷺ: «من أخذ شيئًا فهو له»، وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر، فقال النبي ﷺ : «أظننتم أَنَّا نَغُلُّ وَلَا نَقْسِمُ لكم» ولهذا نزلت الآية، وروى ابن أبي شيبة في (المصنف)[٣] وابن جرير مرسلاً عن الضحاك قال: بعث رسول الله ﷺ طلائع فغنم ﷺ غنيمة فقسم بين الناس ولم يقسم للطلائع فلما قدمت الطلائع قالوا: قسم النبي ﷺ ولم يقسم لنا، فأنزل الله تعالى الآية[٤]، والصواب أن هذه الآية من متعلقات هذه الواقعة كالآيات التي قبلها وكثير مما يأتي بعدها.

(٢) تفسير النسفي جـ١، صـ١٤٩وأخرجه الترمذي (٣٠٠٩)، وأبو داود (٣٩٧١) والطبراني (١٢٠٢٨)، وأبو يعلى (٢٤٣٨) .
(٣) رقم: (٣٣٢٣١)
(٤) تفسير البيضاوي، صـ١١٩.

وأصل الغل: الأخذ بخفية كالسرقة، وغلب في السرقة من الغنيمة قبل القسمة وتسمى غلولا، قال الرماني وغيره: أصل الغلول من الغلل وهو دخول الماء في خلل الشجر، وسميت الخيانة غلولا لأنها تجري في الملك على خفاء من غير الوجه الذي يحل ومن ذلك الغل للحقد والغليل لحرارة العطش والغلالة للشعار.

والمعنى: ما كان من شأن نبي من الأنبياء ولا من سيرته أن يغل لأن الله قد عصم أنبياءه من الغل والغلول فهو لا يقع منهم، وهذا التعبير أحسن من قولهم: ما صح ولا استقام لنبي أن يغل أي يخون في المغنم.

وقد تقدم بيان ما يفيده هذا التعبير من نفي الشأن الذي هو أبلغ من نفي الفعل؛ لأنه عبارة عن دعوى بدليل كأنه يقول هنا: إن النبي لا يمكن أن يقع منه ذلك لأنه ليس من شأن الأنبياء ولا مما يقع منهم أو يجوز عليهم، وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب «أن يُغَلّ» بالبناء للمفعول وهو من أغللته بمعنى وجدته غالًا أي: ما كان من شأن النبي أن يوجد غالًا، أو بمعنى نسبته إلى الغلول أي: ما كان لنبي أن يكون متهمًا بالغلول، أو من غَلَّ أي: ما كان لنبي أن يكون بحيث يسرق من غنيمته السارقون ويخونه العاملون وهذا أضعف مما قبله.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الغل أو الغلول المنفي هنا هو إخفاء شيء من الوحي وكتمانه عن الناس لا الخيانة في المغنم، وإن كان ما بعده عامًّا في كل غلول أو خاصًّا بالغنيمة فإنه جيء به للمناسبة كما عهد في مناسبات القرآن، وانتقاله من حكم إلى حكم أو خبر له حكمة، وذكروا أنه نزل ردًّا على من رغبَ إلى النبي ﷺ أن يترك النعي على المشركين، ومن مناسبة كون الغل بمعنى الكتمان وإخفاء بعض التنزيل ما تقدم من أمر الله -تعالى- نبيه ﷺ في الآيات السابقة بمعاتبة من كان معه في أُحد وتوبيخهم على ما قصروا، وذلك مما يصعب تبليغه عادة؛ لأنه يشق على المبلِّغ والمبلَّغ، ومن أمره ﷺ بالعفو عنهم والاستغفار لهم ومشاورتهم في الأمر على ما كان منهم، وفي هذا إعلاء لشأنهم ومعاملة لهم بالمساواة في مثل هذه الشئون، وذلك مما عهد في طباع البشر أن يشق على الرئيس منهم إبلاغه للمرءوسين.

ثم قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: فسروا الإتيان بما غل به الغال بأنه يحمله وكأنهم جعلوا الباء للمصاحبة، وليس بمُتعين، وقد عدل عنه بعض المفسرين كأبي مسلم الأصفهاني وقال: إنه على حد قوله تعالى حكاية عن لقمان: ﴿يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ١٦)

فليس معنى ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أنه يحملها ولكن معناه أنه يعلم بها أتم العلم لا تخفى عليه مهما كانت مستترة؛ لأن من يأتي بالشيء لا بد أن يكون عالمًا به، والمعنى أن الإتيان بالشيء الذي يغله الغال هو كناية عن انكشافه وظهوره، أي: إن كل غلول وخيانة خفية يعلمه الله -تعالى- مهما خفي، ويظهره يوم القيامة للغال حتى يعرفه كمعرفة من أتى بالشيء لذلك الشيء على حد قوله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾

(الزلزلة: ٧، ٨)

(يتبع)

* * *